2 - المدارس :

لم تعرف المدارس في العهد العثماني نفس الاهتمام الذين أولي للمساجد ، والأرقام تدل على ذلك بوضوح ، فعدد المدارس دائما ما يكون أقل بكثير من عدد المساجد ، ونحن هنالا نتكلم عن الكُتّاب التي كانت مخصصة لتحفيظ القرآن للأطفال الصغار ، فهذه كانت منتشرة بكثرة في كل المدن الجزائرية وحتى الأرياف ، لكننا نقصد المعاهد المخصصة للطلبة ، وكمثال على هذه الأرقام تذكر بعض المصادر أن مدينة الجزائر العصمة كان بها ثلاث مدارس كبرى ، أما المساجد فأكثر من مئة بين صغير وكبير .

ويمكننا تتبع بعض المعلومات العامة عن المدارس من خلال المصادر التاريخية ، ومن بينها مارمول كربخال الذي يقول عن تلمسان "... ويوجد عبر المدينة كلها عدد كثير من المساجد الفخمة ذات الموارد الكبيرة وهي مجهزة بجميع ما يلزم ، علاوة على خمس مدارس رئيسية مزخرفة من إنشاء بعض ملوك زناتة ، ولها دخل للإنفاق على عدد من الطلبة الذين يقيمون بها ويدرسون على أساتذة جميع العلوم الطبيعية والأشياء المتعلقة بدينهم" ، ويقول عن وهران "كانت بها التجارات الواسعة والمساجد والمدارس" ، وعن بجاية يقول "... وبها عدد من المساجد وعدد من المدارس تدرس بها العلوم" ، أما عن عنابة "... ودور هذه المدينة متقنة البناء ، وبها مسجد فخم وبجانبه مدرسة يتعلم فيها شرع محمد" ، وعن قسنطينة يذكر " وبها مسجد كبير رائق ومدرستان تدرس بهما مختلف العلوم" .

ولا نجد معلومات كثيرة عن المدارس في القرن السابع عشر ، أما في القرن الثامن عشر فنجد عدة مصادر بها من بينها شو الذي ذكر أنه كانت توجد بمدينة الجزائر عشرة جوامع كبيرة وخمسون مسجدا صغيرا ، ثلاث كليات كبيرة أو مدارس عمومية وعدد لا يحصى من المدارس الصغيرة (الكتاتيب) ، ونفس الأرقام تماما عن مدينة الجزائر نجدها عند دوتاسي ، كما ذكر شو أيضا أن سكان زواوة يعيشون في عدة قرى يقع بينها جامع يدعى جامع آيت صهريج يوجد بداخله ضريح لرجل يدعى سيدي أحمد بن ادريس ، وكلية (مدرسة) تعنى بتدريس 500 طالب .

وذكر بارادي أنه كانت توجد بمدينة الجزائر ثلاث جامعات كبرى يدرس بها الفقه المالكي ، كما ذكر القنصل شالر أن مدينة الجزائر تضم ثلاث كليات تدرس فيها القراءة ، الكتابة وتفسير القرآن .

فهذه إذا بعض المعطيات العامة عن انتشار وتوزع المدارس بالجزائر ، وقد كانت مدرسة الجامع الكبير واحدة من أشهر المدارس خلال العهد العثماني وربما أشهرها ، وكانت مقصدا للطلبة من مختلف أنحاء البلاد ومن خارج البلاد أيضا ، وكان يدرس بها أشهر علماء الجزائر وفقهاؤها .

لقد زودنا دوفو ببعض المعلومات عن هذه المدرسة قبل تدميرها من طرف الفرنسيين ، فقد ذكر أنها تقع بشارع البحرية مقابلة لمدخل الجامع الكبير وتضم الأجزاء التالية : 1- مسجد بدور ثانوي (مصلى) وبدون مئذنة 2- مدرسة 3- زاوية وعرفها على أنها مكان لإيواء العلماء الفقراء يضم طابقين تتوزع بهما مجموعة من الغرف 4- مراحيض عمومية 5- أماكن للوضوء بها العديد من عيون الماء 6- غرف متفرقة خاصة بأعوان المدرسة أو القائمين عليها .

وقد بنيت سنة 1039 هـ (1629-30 م) من أموال الجامع الكبير وبإشراف المفتي المالكي سيدي سعيد بن الحاج ابراهيم ، تم تأجير المدرسة سنة 1833 لرجل أوربي حولها لحمامات فرنسية ، وفي 1840 تمت إزالة جزء من المدرسة ليصبح جزء من المنزل رقم 20 بشارع البحرية والذي لا يزال (وقت الكاتب دوفو) يعمل كحمام .

ومن أسماء المدارس التي ذكرها دوفو بمدينة الجزائر نجد : - زاوية أقرون - الأندلس - أبو عنان أو البوعنانية - سيدي بالتقا - شيخ البلاد - الشرفا - دار القاضي - القشاش - كتشاوة أو الشبارلية - سيدي لكحل - مولاي حسن - سوق الجمعة - شخطون - يعقوب - يوب (ربما يقصد أيوب) .

ومن المدارس التي لا تزال موجودة قائمة إلى يومنا هذا يمكن أن نذكر مدرسة سيدي الكتاني بقسنطينة ، فهي لا تزال تحتفظ بشكلها الأصلي إلى حد كبير .

تتكون المدرسة من طابقين اثنين ، أرضي وطابق أول ، ويبدو أن الطابق الأول استحدث في العهد الاستعماري فقط ، يتوسط المدرسة صحن يميل إلى المربع ، تحيط به

بائكة في كل ضلع من أضلاعه تتكون من ثلاثة عقود ، تحملها أعمدة مضلعة ، وبالجهة الجنوبية الشرقية نجد القاعة الكبرى أو الإيوان الذي يمثل قاعة التدريس ، وكانت تؤدى الصلاة فيه أيضا ، بدليل المحراب الموجود بداخله ، وهو محراب مجوف يكتنفه عمودان رخاميان أسودان ومكسو داخله بمجموعة من البلاطات الخزفية والرخامية ، ويتم الدخول إلى هذه القاعة من رواق مطل على الصحن عبر مدخل كبير ، ويكتنف هذه القاعة والصحن رواقان عموديان على جدار المحراب ، ويقابل هذه القاعة من الجهة الغربية بعد الصحن مقبرة ترتفع أرضيتها عن المبنى بـ 1.5م ويحدها عن الصحن درابزين من الرخام ، وأخذت هذه المقبرة شكل الإيوان أيضا ، بمعنى أنها محصورة بثلاثة جدران ، والجهة الرابعة مفتوحة على الصحن ، وتعلو هذه المقبرة قبة تقوم على حنايا ركنية على شكل محارة ، وعلى اليسار توجد قاعة أصغر حجما تضم قبرين آخرين ، ومن الجهة الشرقية يوجد رواق آخر يحد جدار المحراب من الخارج ، وهكذا أصبح المبنى عبارة عن قاعة للتدريس أو إيوان القبلة ، صحن ومقبرة ، يحيط بهم جميعا ثلاثة أروقة ، فتحت بها مداخل تؤدي إلى سلسلة من القاعات الصغيرة استخدمت كمرافق تابعة للمدرسة ، وعن يسار قاعة التدريس نجد السلم المؤدي إلى الطابق الأول حيث توجد قاعة كبرى تعلو قاعة التدريس المذكورة سابقا ، وعلى يسارها ويمينها أربع قاعات أخرى ، بمعنى أن تخطيط الطابق الأول مماثل لتخطيط الطابق الأرضي .

الأعمدة التي تدعم العقود والأروقة المقابلة للصحن مصنوعة من الرخام الأبيض الباهت ، وهي ثمانية الأضلاع ، وتنتهي بتيجان مثمنة أيضا تضم زخارف حلية البيض والسهم و عنصر الهلال ، وهي نفسها في الطابق الأرضي أو الأول .

بالنسبة للمقبرة فالحقيقة أنها كانت جزءا من المدرسة ، ويبدو أنها استحدثت لاحقا فقط ، يدل على ذلك الكتابة التأسيسية الموجودة بأحد جدرانها وهو المقابل لجدار القبلة ، وهي كتابة تتعلق بتأسيس المدرسة ، مكونة من ثمانية أسطر نفذت بطريقة بارزة وبخط الثلث على لوح من الجص وهذا نصها :

سطر 01 : بسم الله الرحمن الرحيم * صلى الله على سيدنا محمد .

سطر 02 : طاب الزمان بمن توالى نفعه * للمسلمين وزاد في علياه .

سطر 03 : ملك يوم الصالحات بعزمه * فاختار اخره على دنياه .

سطر 04 : احيى دروس العلم بعد دروسها * وبنى لها دارا زكى مبناه .

سطر 05 : هي مدرسة لاحت اشعة نورها * لم لا وهي الدر في معناه .

سطر 06 : جادت بها انفاس لمعظم صالح * ذلك المجاهد يبتغي مولاه .

سطر 07 : فالله يرزقه السعادة بمال * وينيله يوم القيامة مناه .

سطر 08 : قد بين التاريخ في قول لنا * فخر المحامد بالهنا مبناه .

والتاريخ قد ذكر هنا في عجز البيت الأخير ، فبجمع كلماته وما يقابلها بالأرقام نحصل على تاريخ 1191 ، ولكن بحسب المصادر فإن بناء المدرسة كان في 1189 هـ/1175 .

وهناك مدرسة أخرى يمكن أن تؤخذ أيضا كنموذج لمدارس العهد العثماني وهي مدرسة خنق النطاح بوهران ، ولا يعلم على وجه التحديد تاريخ بناء هذه المدرسة لكنها بنيت بالتأكيد في حكم الباي محمد الكبير (1779-1799) بعد فتح وهران ، وقد انتقل إليها مع أفراد عائلته بعد ما ضرب وباء مدينة وهران ، وصارت تستخدم كمسجد له ولحاشيته ، وأثناء الاحتلال حولها الفرنسيون إلى حمام للجنود ، وبعد الاستقلال عادت إلى وظيفتها كمسجد وليس مدرسة .

تأخذ المدرسة مسقطا مستطيلا به انحراف بسيط في جهته الغربية ، كان لها ثلاثة أبواب ، باب في الجدار الشمالي سد لاحقا ، واثنان في الجدار الجنوبي أحدهما يفضي لرواق خلف الصحن والآخر يفضي إلى الصحن مباشرة والذي يكون مربعا تقريبا بطول 5.65 م وعرض 5.3 م ، تحد الصحن أروقة من الجهات الأربع ، ومن جهة القبلة رواقان متتاليان تنفتح منهما ثلاثة أبواب ، باب كبير يؤدي إلى القاعة الرئيسية وهي قاعة الدرس والصلاة وهي مربعة أيضا بطول 06 م وعرض 5.5 م تعلوها قبة كبيرة ، وتكتنفها عن الشمال والجنوب قاعتان أخريان ، قاعة شمالية بطول 6 م وعرض 2.3 م ، وقاعة جنوبية بطول استخدمت كمقصورة للإمام ، وقاعة جنوبية بطول 3.5م وعرض 2.5م ومنها نعبر إلى المئذنة ذات المسقط المربع .